هنيبال

القائد القرطاجني الشهير

انما الرجال باعمالهم وقد مرّ القرون وطمس اخبار السراة والاغبياء ولكن الاعمال الكبيرة تخلد اسماء اصحابها القائمين بها ويروي التاريخ سيرتهم تمجيداً لاسمائهم وعبرةً للناس. هذا هنيبال اوحنبعل[1] ابن هملكار القائد القرطاجني الملقب بالبرق. بطلٌ ابن بطل سرّت على اعماله السنون الطوال ولم يزل اسمهُ يرنّ في الآفاق. نحن الآن نلخص سيرتهُ لما في تضاعيف اخباره من الحمية الناهضة والوطنيّة الصادقة والمعرفة الواسعة بابواب الحرب وقيادة الجند. الّا ان الكلام في شأنهِ يقتضي تمهيداً فنقول

كانت صور سلطانة البحار ومقر تجارة الامم وقد انتشرت مستعمراتها على كثير من سواحل البحر المتوسط وعرف رجالها البلاد القاصية حتى اذا وقعت فيها بعض الحوادث السياسيّة خرج

(١) الكلمة فينيقية معناها حنان بعل او نعمة الله

منها نفر من اهلها بزعامة اميرة من البيت الملكي اسمها ديدو وقصدوا سواحل افريقية الشمالية وخططوا هناك مدينة سنة ٨٧٨ ق . م سموها قريث حدشث اي القرية الحديثة وحرّفها الرومان والعرب فقالوا قرطاجنة فنشأت واتسعت وازهرت في مدى قرون وصارت صورٌ في التجارة وسلك البحر وانشاء المستعمرات ولم تكن الدولة الرومانيّة قد اعتزت فامتدت الى بعض الجزائر ازاء ايطاليا ومن جملتها صقلية (سيسيليا) وكان للرومان فيها بعض ممتلكات فلما رسخت اقدام القرطاجنيين امتعض الرومان وداخلهم الحسد من اعتزاز منافسيهم حتى اذا لجأ اليهم قومٌ يُقال لهم المامرتين كانوا نازلين في بلدة ايطاليّة من صقيلة اظهروا لهم العداء وناصبوهم الشر فابتدأت بومئذٍ الحرب سنة ٢٦٥ ق . م وعرفت بالبونيّة الاولى وظلت على احتدامها بين الدولتين مدة اثنتين وعشرين سنة . الاّ ان الظفر كان حليف الرومان فعُقد الصلح على ان يخلي القرطاجنيون جزيرة صقلية وكل الجزائر التي ازاء ايطاليا وان يطلقوا سبيل اسرى الرومانيين من غير فديةٍ ولا بدل وان يؤدوا نفقات الحرب مبلغاً يناهز ثلاثة آلاف وستي وزنة قيمتها الآن حوالا ستمئة وستين الف جنيه تدفع في مدة عشر سنوات

ولم يكن ظفر الرومان رخيصاً لانهم اشتروه بكثير من المال والرجال . وبعد ذلك مضت مدة اثنتين وعشرين سنة ساد فيها السلام بين الدولتين واسترجعت كلتاهما قواها — على ان الرومان اغتنموا فرصةً سنحت بوقوع فتنة بين جند قرطاجنة من حامية سردينيا فدخلوا الجزيرة وطردوا القرطاجنيين منها فكأنهم عادوا فاوقدوا جذوة الحرب بعد خمودها . الاّ ان قرطاجنة كانت قد استرجعت قواها وتظمت شؤونها وفتحت في ايام السلام بلاد اسبانيا فملكتها بما فيها من مناجم الذهب واسواق التجارة وكثرة السكان الصالحين للجندية فوقع القتال وكانت الحرب سجالاً لكن الغلبة الاخيرة كانت للرومان فاذعن القرطاجنيون وخضعوا وظلّ السلام سائداً مدة ٥٣ سنة وفي خلالها عادت الحرب الى الاصطلاء وكان الرومان قد ازدادوا حولاً واقتداراً بينما كان القرطاجنيون قد صاروا الى الضعف والوهن فلما وقعت الحرب الثالثة لم يكن لهم حصون يلجأون اليها وانما جاهدوا بملء قوتهم لدفع العدو مدى ثلاث سنوات ثم أُخذت مدينتهم مهاجمة واحرقت فكان سكانها يقاتلون في الازقة والشوارع والدور تشتعل فوق رؤوسهم ولما اعيتهم الحيلة التجأ منهم خمسة وخمسون الفاً الى القلعة فلم يقدروا على حفظها فسلموا وأُخذوا اسارى وبيعوا عبيداً واما المدينة فدكت الى الارض وقعت بالسكة ورش عليها الملح رمزاً الى صيرورتها بلقعاً لا تصلح لشيء ثم غلبت رومة على كل ممتلكات قرطاجنة وضمتها اليها وصارت تلك الدولة اثراً بعد عين . وجل ما يعرف عنها

الآن مستفاد من سيرة الابطال الذين نترجمهم.

في بدء الحروب البونية الاولى اي سنة ٢٦٥ ق . م وُلد هملكار في قرطاجنة ونشأ فيها وترعرع حتى اشتهر امرهُ في الحرب والسياسة وحتى انتهت اليهِ زعامة حزب العامة لانهُ يروى ان حكومة قرطاجنة كانت مزيجًا من المبادىء المعروفة بالاريستوقراطية (حزب الاعيان) والديموقراطية (حزب العامة) اما هملكار فلا يعرف شيءٌ من امر دخولهِ في الجيش قبل السنة الثامنة عشرة من الحرب الاولى حين كان على امرة جيشٍ من ابناء قومهِ وكان النصر باسمًا لاعدائهم والحرب قائمة على قدم وساق في جزيرة صقلية وكلها بيد الرومان الاَّ بعض المواقع على ساحلها الغربي فاتخذ موقعًا حصينًا يقال لهُ بلربنر قرب بلرمو وكان الخليج المجاور مرسى لاسطول دولتهِ فشرع يغير الغارات الشعواء على الجزيرة حتى بلغ ساحلها الشرقي ثم تمادى بهِ الامر فصار يكتسح السواحل الجنوبية من ايطاليا وكلما لقي شرذمةً من الرومان يحكل بها حتى فاز الرومان بالظفر البحري على العمارة القرطاجنية سنة ٢٤١ ق . م فكفَّ عن القتال ثم ارسلهُ قومهُ لعقد الصلح مع الظافرين لبذل قصاراهُ في تخفيف شروط الرومان ولكنهُ لم يتل كل اربهِ . ولما عاد بجيشهِ الى بلادهِ اراد ان يعوّض على حكومتها ما خسرت من العزة والمكانة بفتوحاتٍ جديدةٍ في اسبانيا فاقرّت على انفاذ قصدهِ ولكنهُ تأجل عملهُ لان بعض جنودهِ المستأجرة ثاروا وعصت طائفةٌ رواتبها مع ان خزينة الدولة كانت فارغةً عقيب نفقات الحرب الفاحشة فادّى هذا العصيان الى تجريد القوة لكبحهم ولكن العصاة غلبوا اولاً حتى اذا وسد اليهِ امر اخضاعهم زحف عليهم وواقعهم فغلبهم وسحق قوتهم فلما سكنت الامور تهيأ لهُ سنة ٢٣٨ ق . م ان يزحف لفتح اسبانيا فخرج اليها مستصحبًا معهُ ابنهُ هنيبال ليدربهُ على الحرب . ووقعت الحرب الاسبانية فكانت شديدة هائلة الاَّ انها لا يُعرف عنها شيءٌ سوى فوز هملكار بفتوحاتٍ جليلة وكاد يتغلب على اسبانيا كلها لولا ان فاجأتهُ المنيَّة سنة ٢٢٩ ق . م وهو لم يتجاوز السادسة والثلاثين من عمرهِ

وخلف ثلاثة ابناء هنيبال وهدروبال وماكو فاما الاول فقد كان مولدهُ سنة ٢٤٣ ق . م ونشأ في وطنهِ حين كانت الحرب ناشبة فيهِ وابوهُ في جملة الذين يجاهدون فيها فشاهد اشدَّ ويلاتها حتى اذا عقد الصلح ونشبت ثورة المستأجرة ثم اخمدها ابوهُ بقوتهِ وتدبيرهِ وتهيأ لحربٍ زبون في اسبانيا اراد ان يمرّنهُ على مناشب القتال وان يريهُ كيف تفدى الاوطان بالارواح فلم يشفق على غصن حداثتهِ الغضّ بل عزم على استصحابهِ معهُ في سفرهِ وهو حدث في التاسعة من عمرهِ

ومع ان الحرب التي اراد هملكار ان يشهدها ابنهُ كانت في اسبانيا فانهُ لم يقصد بها نكاية شعوبها بل التعويض بغلبهم عما خسرت دولتهُ في حرب رومة فرومة اذ ذاك مطمح انظاره والى عدائها سعى في توجيه عناية ابنهِ ليتشأ خصماً لدوداً للظافرين لا ينام حيناً عن ايذائهم ولذلك اخذهُ قبل السفر الى المعبد وهنالك وقف بهِ امام المذبح واستحلفهُ باعظم الايمان ان يستمر على عداء رومة مدى عمرهِ

فسار في ركاب ابيهِ وشهد المواقع الاولى التي دارت بين الهاجمين والمدافعين ولكنهُ لم يشترك في القتال حتى اشتد ساعدهُ ثم مات ابوهُ ظافراً سنة ٢٢٩ ق م ويغلب على الظن انهُ خاض معهُ غمرات القتال لانهُ كان حينئذٍ في الثامنة عشرة من عمرهِ ولما انتهت القيادة بعد ابيهِ لاسدروبال صهرهِ لبث يحارب معهُ ويزداد دربةً في ابواب القتال وطرق القيادة واساليب السياسة والادارة بما اتسع لديهِ من مجال المشاهدات اذ كان اسدروبال قائماً بحسن قيام بامارتهِ يغلب الاعداء ويفتح البلدان والاقطار ويستدر المتاجم الذهبية وغيرها وما زال هذا حالهُ من التعلم والممارسة حتى قضى اسدروبال نحبهُ سنة ٢٢١ فوسدت القيادة الكبرى لهنيبال وعمرهُ يومئذٍ ست وعشرون سنةً الا ان حداثة سنهِ لم تكن تحول دون نهوضهِ بالواجب عليهِ لانهُ كان قد تمكن من الفنون الحربية واشتهرت شجاعتهُ وبراعتهُ وفوق هذا فانهُ كان عارفاً بسياسة البلاد ضليعاً بمناهج امرتهِ جامعاً في ذاتهِ بين اقدام الشباب وحكمة الشيوخ وحنكة القائد المجرب ورغبة الشرقي ملطفةً بالتهذيب اليوناني الكامل وكان فوق ذلك زكياً فصيحاً واسع الاطلاع صبوراً عفيفاً عادلاً مستقيماً اذا فاتهُ الطلب بالسيف لا يعدم خدعةً لنيلهِ

وكان اسدروبال قد بلغ بفتوحاتهِ نهر الايبرو فلما وسد الامر لهنيبال اهتم بالتوسع في الفتح فزحف وحارب وظفر ولم يبقَ عليهِ الا مدينة سغنتوم وكانت نزالة يونانية متحالفة لرومة فعزم على حصرها وضربها تماماً لرغائبهِ في الفتح ومزيداً في نكاية رومة الا ان الحكومة القرطاجنية لم ترَ رأيهُ نحبذاً لتحرش بالدولة الرومانية واخذاً برأي الحزب السائد في البلاد فلم يعبأ بما أُمر بل زحف بالمئة وخمسين الفاً الذين كانوا تحت امرتهِ واحط على حصارها بمنتهى الشدة فدافعت دفاع الابطال المستميتين واقامت تعاني مضض الحصر ثمانية اشهر حتى اعيتها الحيلة فسلمت سنة ٢١٩ كل هذا ورومة تبحث في وجوب نجدة حليفتها او اهمالها حتى قطع الفتح حديثها. واما هنيبال فقد لوّث صفيحة نصره بالقسوة البالغة شأن الفاتحين الاقدمين الذين قلّ منهم من رثى للمغلوبين حرمة بسالتهم وكانت غنائمهُ من المدينة المفتوحة عظيمة جداً بحيث

امتلأت منه ايدي العسكر وارسل من اطايبها الشيء الكثير الى قرطاجنة فنُعش لها الناس وصمت المتكلمون عليه وانجاز فريق من مقاوي سيستو الحربيَّة الى حزبه

واما الدولة الرومانيَّة فساءها الظفر القرطاجني واردت ان تكفر عن مطلها في نصرة حلفائها فارسلت تطلب من قرطاجنة ان تسلم اليها هنيبال قائدها الباسل فلما ابت إجابتها شهرت عليها الحرب فكان ذلك بدء الحرب البونية (الفينيقية) الثانية

ورأى هنيبال ان يتخذ في هذه الحرب خطةً كبرى للقتال اذ اتجهت مطامعهُ الى فتح رومة ودكها الى الارض . فعبأ جيشاً كثيفاً من الذين لم يمضِ على خضوعهم لدولته الاَّ الزمن اليسير . وبعث بشرادم من الاسابيول خفارة المتملكات الافريقيَّة ونهض في ربيع سنة ٢١٨ بجيش يناهز الستين الفاً من المشاة واثني عشر الفاً من الفرسان وسبعة وثلاثين فيلاً وخرج من قرطاجنة الجديدة فعبر نهر الابرو ونكَّل في طريقهِ ببعض القبائل النازلة في الشمال الشرقي من اسبانيا وكانت على جانب من الشجاعة ثم اجتاز جبال البيرنه التي تفصل اسبانيا عن فرنسا وهنالك صرف بعض الفرق الاسبانيَّة من عسكرهِ اظهاراً لثقتهِ بمن بقي وجعل على خفارة الجبل جنداً معقوداً عليهِ لهانو القرطاجني المشهور واندفع يقطع المراحل بين البيرنه ونهر الرون مسرعاً بمن بقي معهُ من الجند وعدتهم حوالا تسعة وخمسين الفاً وبالغ الرون وعلى ضفافهِ قبائل محالفة لرومة لم يعبأ بها بل عبر النهر غير هياب من بطشهم ومن بسالة جيرانهم النالة وتجنب فرسان الرومان القائمين على قرب منهُ تحت امرة القائد الروماني المشهور كورنيليوس شيبيو الكبير الذي كان قد قدم بكتيبتهِ بحراً ونزل البر الغالي . وسار هنيبال بين نهري الرون وايزر حتى جبال الالب فصعَّد فيها واجتازها من الجانب الواحد الى الآخر . وقد اختلف رواة اخباره في تحديد الموضع الذي اختارهُ مجازاً وكان الوقت خريفاً والعواصف شديدةً فزادت متاعب الجند واحتملوا من العناء اشدَّهُ في مدى خمسة عشر يوماً قضوها في تسلُّق الجبال والانحدار منها حتى اذا بلغوا الحضيض لقوا الامرّين من خيانة قبيلةٍ غاليَّة يقال لها سانرونس الاَّ ان همة القائد العظيم كانت كفاء الحاجة ويحسن تدبيرهِ حبطت مساعي الطاعنين وتيسرت اسباب النقل من فوق تلك الحطام ولكن الجيش الذي احتمل العناء الشديد خسر الخسائر الفادحة اذ لم يسلم منهُ الاَّ عشرون الفاً من المشاة وستة آلاف من الفرسان

وكان قد سبق لهنيبال ان عاقد بعض القبائل النازلة وراء الالب على عصيان الدولة الرومانية فلما اجتازت جنودهُ الجبال شقوا عصا الطاعة وانضموا الى القرطاجنيين وزحف بهم في جملة عسكرهِ الى مدينة كانت تناصبهم العداء يُقال لها تورينيوم وهي تورين الحاليَّة فملكها

وكان شيبيو الكبير قائد الرومان لمَّا فائهُ نزال هنيبال في الجانب الغربي من الالب قد عاد فركب البحر ونزل البر في شرقي الالب ليمنع القرطاجنيين من التقدم فلقيهُ هنيبال وجمع فرسان جنده وخطب فيهم خطاباً حماسيًّا فاندفعوا على الرومان وكسروهم كسرةً هائلةً ردتهم على اعقابهم حتى مدينة بلاسنزيا وهي بياسنزا الحاليَّة

وحدث ان قائدًا رومانيًّا آخر يقال لهُ سمبرونيوس قدم بجيشٍ من صقلية ولم يلحق بقل شيبيو الى المدينة لمعسكر فلقيهُ القرطاجنيون وعليهم ماكو شقيق هنيبال فوضعوا لهُ كمينًا اجل عن انكسار الرومان كسرةً هائلة ذهبت بمعظم جيشهم ولم يبقَ منهُ الاَّ نفر قليل

فلما رأى رجال الدولة الرومانية ان هنيبال احرز الظفر في كل المواقع نهضوا للدفاع عن حوزتهم وارسلوا سرڤيليوس وفلامينيوس اللذين انتخبوهما قنصلين ليذودا عن اومبريا واتروريا لانهم حسبوها عرضةً لهجوم هنيبال فاختار لاجتياز جبال الابنين منفذًا غربيًّا فكان مرورهُ فيهِ محفوفًا بالمصاعب والمتاعب حتى انهُ لم يسلم لهُ من فيلتهِ الاَّ فيل واحد ثم عبر السباخ المجاورة آرنو والتي فيها اشد الاهوال ومن انكاها ان فقئت احدى عينيهِ . ولكنهُ مرَّ بمدينة اريتيوم (اريزو) وكان القائد فلامينيوس مخيمًا فيها بعسكرهِ فلما علم بمرورهِ نهض للاقائهِ ونزل في مضيق بين كورتونا وبحيرة بيروجيا فباغتهم القرطاجنيون بالهجوم من الامام والوراء في وقت واحد ووقع القتال فقتل من الرومان كثيرون وغرق آخرون في البحيرة واضطر الباقون الى التسليم اما قائدهم فراح قتيلاً وبعد انتهاء الموقعة وصل ساحة الوغى اربعة آلاف فارس روماني ارسلهم سرڤيليوس لنجدة رفيقهِ فلقيهم القرطاجنيون واذاقوهم الكأس التي شربها رفاقهم

يومئذٍ صدق حدس هنيبال من ان الظفر لمن يضرب الضربة الصائبة اولاً لانهُ حتى ذلك الحين لم يكن الأمنصورًا على ان الرومان تنابت عليهم اخبار انكسارهم فهلعت قلوبهم على شدتها واصبحوا يوجسون خوفًا حاسبين هنيبال قد صار على قيد اصبع من عاصمتهم واكثروا من التحدث في ذلك حتى ضرب المثل اللاتيني بما تعريبهُ هنيبال على الابواب يقال لمن يحذر خطرًا قريبًا

ولكن الخطر متى دنا من مثل الرومان همةً وبسالةً ينتهضهم لاجهاد النفس في دفعهِ فاقرت ندوتهم العليا (السناتو) على عقد الامارة الكبرى لفابيوس مكسيموس وعلى تحصين رومة

كان هنيبال عارفًا بمقام الرومان من البسالة والدربة وانهم قومٌ اذا استماتوا عزَّ عليهِ ان ينال منهم اربًا فعزم ان يستبدل القوة بالحيلة والدسيسة بحيث يستفز الخاضعين لرومة وحلفاءها ويسعى باخراجهم عن طاعتها قبل ان يحمل عليها . وعلى ذلك زحف الى بنوم وشرع يعيث في البلاد قتلاً ونهبًا وخرابًا لان سكان ذلك القطر كانوا من اشد الناس لرومة

فلما علم فابيوس بما كان برز من اعاصمة بجيشهِ لكشف وقصد لقاءه الظافر ولكنهُ لم يسر اليهِ حثيثاً بل زميلاً حتى لقبهُ الناس كونكتاتور اي البطيء. ولما صار على مقربة منهُ شرع يتبعهُ كظلهِ ويضرب في اقفية عسكرهِ كلما سنحت الفرصة ويقف في سبيل تطرقهِ الى الايذاء ولكنهُ يجتنب المواقعة الفاصلة . فكان عملهُ هذا مفيداً لرومة اذ اتسع لها الزمن الذي تتدبر فيهِ على تعبئة الجيوش واعداد العدة والذخيرة

وكانت حنكة القائدين ودربتهما عظيمة تعادلان في كثير من شؤونهما اعتبر ذلك بما كان من القائد الروماني حين رأى ذات مرة ان عدوهُ واقف بجيشهِ في مضيق بين الجبال فاحاط بهِ من كل جهةٍ وضيّق عليهِ غير ان هنيبال كان كفء الخطوب فابرى واستحضر الى ثور وربط على قرونهِ حشباً واوقدها في الليل الداجي فوق مرتفع من الجبل ثم اشعل الحشب فظن الرومانيون ان العدو يقتحمهم على غرةٍ فافرجوا عن بعض مواقعهم وتم للقرطاجنيين ما اراد قائدهم

الّا ان تأني فابيوس لم يكن مقبولاً لدى رجال دولتهِ ولا امراء جيشهِ فحدث ذات مرة انهُ كان غائباً فلاحت لقائد فرسانهِ مينوشيوس فرصة منازلة العدو ففعل ونال بعض الظفر فسرّت رومة بفعلهِ واشركتهُ مع فابيوس في الامارة الكبرى فظفر مسروراً وحملتهُ الجسارة على اغتنام فرصة اخرى حمل فيها على الاعداء فانجحوا فيهِ وكاد يبيد جيشهُ لولا اسراع فابيوس لنجدتهِ

ورأى هنيبال ان مقامهُ في بلاد العدو محفوف بالاخطار فكتب يستحث حكومتهُ على ارسال المدد ولكن اعداءهُ عارضوهُ بان لا حاجة للجدة وهو ظافر منصور وصادفت معارضات خصومهِ قبولاً لان يد قرطاجنة كادت تقصر عن المزيد لاسيما وان اسدروبال اخا هنيبال كان على امرة جيش كثيف في اسبانيا يحارب بمرث الرومان اليها بقيادة الاخوين من آل شيبيو

فظلّ هنيبال مهملهُ حكومتهُ وهو قائمٌ على امرتهِ يدبر امرهُ بنفسهِ فرأى من الضرورة ان يضرب الرومانيين ضربةً فاصلة تهدم اركان حلفتهم وتضعف قواهم وما لبث ان سنحت لهُ الفرصة اذ وقع الاختيار سنة ٢١٦ على تورنتيوس ڤارو قنصلاً واميرًا للجيش وكان جسورًا متهورًا وكان هنيبال نازلاً في سهلٍ خصيب قرب كانيا على ضفاف نهر اوفانتو وتحت امرتهِ خمسون الفاً من الابطال وكان عدد الجيش الروماني ثمانين الفاً وعليهم ڤارو المذكور وقائد آخر اسمهُ اميليوس باولوس فلما وقع النزال حتدم من الحرب اي احتدام واظهر هنيبال من المهارة في الترتيب والتدبير ما لا يعرفهُ القائدان الرومانيان وخدعهما خدعاً كثيرًا ورماها بخبة فرسانهِ الابطال فاثخن في العدو قتلاً وجرحاً حتى هلك الجيش الروماني اوكاد وبلغت عدة قتلاهُ

خمسين الفاً على قول وسبعين الفاً على قول آخر من جملتهم القائد اميليوس باولوس وكثيرون من الاعيان والابطال ولم ينجُ من الرومان الاَّ بضعة رجال فيهم فارو فلم يكن من ندوة البلاء لاَّ ان شكرت همتهُ واثنت على بسالتهِ فالثقة ان الجمهورية لا تقنط فادرك هنيبال من هذا القرار ان الرومان قومٌ اياسل لا يقنطون من النجاح ولذلك ابى العمل برأي ايبيو في وجوب الحملة سريعاً على رومة واقام في جنوبي ايطاليا حيثما استولى على مدينة كابو وعسكر فيها فاستهوت المدينة برخائها ورغيد عيشها ابطالهُ واضرّت بنظامهم وجاءتهم الامراض فآذتهم

وكأن نجم سعدهِ كان على وشك الافول لانهُ ما عتم ان توالت عليهِ الاحن اذ غلبهُ القائدان مارسلوس وفابيوس سيفي نولا واتصلا الى حصر سيراكوسة والاستيلاء عليها لانها حالفت هنيبال فلما علم فيليب الثاني ملك مكدونيا بما صارت اليهِ عدل عن محالفة قرطاجنة

واما في اسبانيا فان القرطاجنيين كانوا قد ظفروا بعض الشيء وقُتل قائداهم ولكن شيبيو الصغير تقلد الامارة على الرومان وحارب وظفر باسترجاع ما خسر ابوهُ وعمهُ

واتصلت هذه الانباء بهنيبال وعلم ايضاً ان الرومان فتحوا سقلية وشرعوا يرسلون جيوشهم الى سواحل افريقية يفسدون في مملكات قرطاجنة ولما علم الجند بذلك علمت قلوبهم فساريهم سنة ٢١٢ لفتح مدينة تارنتم ولكن الرومان كانوا من ورائهِ ينقضون المدن التي دانت لهُ وحصروا كابو وضيقوا عليها فلم يقوَ على رفع الحصار بل ترك العدو على عملهِ وزحف على رومة فبلغها سنة ٢١١ ولكنهُ لم يجنِ نفعاً لان الرومان كانوا اكفاء الخطوب وما لبثوا ان فازوا باستلاك كابو وبصيانة تارنتوم وبالظفر في موقعة هردونيا سنة ٢١٠ فاضطر ان يقوم على الدفاع ولم يظفر بعد ذلك بنصر يستحق الذكر الاَّ بالقاء مارسلوس القائد الروماني في كمين عند فنوسيا سنة ٢٠٨ حيث اودى بهِ . ولم يبقَ لهُ من امل الاَّ بالمدد الذي كان يتوقع وصولهُ اليهِ من اسبانيا حيث كان اخوهُ اسدروبال زاحف لنجدتهِ بجيش كثيف الاَّ ان الرومان اعدّوا لهُ جنداً وعقدوا عليهِ لقائدين مشهورين هما ليفيوس وكلوديوس نيرو وكان ثانيهما في جنوبي ايطاليا يرصد حركات عدوهِ فاسرع السير الى حيث انضم الى زميلهِ ووقف كلاهما لاسدروبال ثم واقعاهُ سنة ٢٠٧ فكسراهُ كسرةً هائلة حطمت الجيش القرطاجني وخيبت آمال هنيبال لا سيما بعد ان رأى رأس اخيهِ ملقىً بين معسكرهِ بأمر الظافرين . الاَّ ان يأسهُ لم يعدمهُ الاهتمام بمتابعة القتال حفظاً لشرف دولتهِ فظلَّ محارباً في جنوبي ايطاليا حتى سنة ٢٠٣ حين استدعتهُ بلادهُ اليها فأسرع انكرهً ليدفع طارئة العدو لان شيبيو الصغير كان قد دوّخ اسبانيا وركب البحر الى افريقية واتجه صوب قرطاجنة ليقيم الحرب العوان في عقر دارها

ولما وطئت قدماهُ بلادهُ بعد غيابٍ طويلٍ شرع يكتّب الكتائب فسنى لهُ حث السرايا من نخبة الفرسان واندفع بهم وبسائر الجيش على ماسينيسا صاحب نوميديا الذي كان الرومان قد استمالوهُ وحالفوهُ على نصرتهم فضربهُ ضربةً هائلةً ثم شرع يحارب شيبيو في المعاقلة ولكن المساعي السلمية خابت وعادوا الى القتال فالتقوا سنة ٢٠٢ وكان جيش الرومان يومئذٍ اقل عدداً ولكنهُ اكثر دربةً وانتظاماً فانتصر

ومما يروى ويدل على تأثير الاوهام وسوء نتائجها ان الناس يومئذٍ كانوا يوجسون خوفاً من الظواهر الفلكية زاعمين ان لها علاقة بالبشر وحكماً في اعمالهم فلما كانت الوقعة كسفت الشمس فارتاع المستأجرة في الجيش القرطجني ووقع فيهم الرعب فكانت الغلبة لعدوهم وبها تمت مواقع الحرب البونية الثانية. واما رومة فقد اشترطت للصلح شروط الظافر فارتضتها قرطاجنة تخلصاً من وبال الحرب وكان هنيبال قدّى في عيون الرومان وشجىً في حلوقهم ولذلك سعوا منذ عقد الصلح فنالوا من حكومتهِ عزلهُ عن امارة الجيش فدخل الخدمة الادارية وبالنظر لسمو افكارهِ واقتدارهِ ما لبث ان ارتقى الى اعلى خططها واحدث في الادارة اصلاحاتٍ مهمة في العدلية والملكية والمالية حتى اعاد الى الخزينة ما فقدت من الثروة وعطف بالسياسة الحكيمة الراشدة فاسترضى بعض الممالك وحالفها وكان يشدد النكير على مختلسي اموال الدولة ويحتكري منافعها فناهضوهُ باشد العداء واوغروا صدر الرومانيين عليهِ حقداً زاعمين انهُ يعمل ما يؤدي الى حربهم فبعثت رومة وفداً الى قرطاجنة يسعى في قتلهِ فلم وطلب النجاة بالفرار من بلادهِ الى صور ومنها سار الى بلاط انطيوخس الكبير ملك سورية وكان انطيوخس يتأهب لمحاربة رومة فحملهُ هنيبال على اعلان الحرب وكاد يظفر بمناهُ من الرومان لو لم يرَ انطيوخس ان يصغي الى مشورة رجالهِ الذين خافوا ان يسيقهم هنيبال الى ثغر الظفر بما لهُ من سابق الشهرة فلم يبأ بخطة هنيبال وهي ان يهاجم الرومان في عقر ديارهم بالاتحاد مع قرطاجنة ولا منحهُ قيادةً في جيشهِ المحارب بل امرهُ على اسطولٍ سيّرهُ لفتح رودس فلم يفلح الاسطول بالرغم عن بسالة قائدهِ ولما غُلب انطيوخس طلب الرومان اليهِ ان يسلم هنيبال وعلم هذا بطلبهم ففرّ هارباً الى الملك بروسياس صاحب بيثينيا وهناك حرض الملك على محاربة رومة ونال نصراً في قتال عدوهِ صاحب برغاموس فحنق الرومان بهِ الى هناك وارسلوا فلامينيوس سفيراً يطلبهُ من بروسياس فاذعن وامر بالقبض عليهِ لكن هنيبال شرب السم ومات حرًّا وكان ذلك سنة ١٨٢ ق م

ر ن